و العمليّة، و مع ذلک مشارک للحيوانات فی الأغراض الشهوية و الغضبية، بل أنزل رتبة و أضل سبيلا منها فی الدواعی النفسانية، و الميل الی الدنيا و الاخلاد الی الأرض، فان بقی علی هذه الحالة التی هی بعينها سبب دخول الجحيم و غضب الجبار، أو نفسها ـ کما هو عند بعض ـ فکان علی شفير جهنم، فاذا تنوّرت ذاته بالايمان اليقينی و المعارف اليمانية و العمل بمقتضاها فقد حصل له ما هو سبب دخول الجنان و مجاورة الرحمن أو عينها ـ کما هو عندهم ـ.

فمعنی هذه الآية و غيرها من النقول المذکورة هو ماذکرنا، فانّ العبد لوخلیّ ساعة من توفيق الله تعالی لوقع فی الظلمات ممّا توجبه الشهوات و غيرها، فصار امداد لطفه و افاضة نوره آناً فآناً سبباً لدفع تلک الظلمات عنه، و بين الدفع و بين الرفع مشابهة، فبهذا الطريق يجوز استعمال الاخراج و الابعاد فی معنی الدفع و الرفع.

المقالة الثامنة عشرة
فی قوله سبحانه و تعالی: ﴿والذين کفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الی الظلمات﴾

و فيه مطالع:

المطلع الأول
فی اللفظ

«الطاغوت»بلفظ الواحد والأولياء بلفظ الجمع، ليعلم أنّ الولاء والمحبة من قبل الکفار للطاغوت لامن قبله لهم، فلو کان من قبله لقال: «وليّهم الطاغوت»أو «الطاغوت وليّهم»وأمّا ما قرأه الحسن«أولياؤهم الطواغيت» واحتجّ بقوله تعالی بعده﴿يخرجونهم من الظلمات الی النور﴾، فهو اسناد مخالف للمصاحف، علی أنّه قد مرّ أنّ هذا اللفظ مفرد لا يجمع، و لهذا يقع فی موضع الجمع.

ومن الدلائل علی ماحملناه ـ من کون الأولياء بمعنی المبنی للمفعول بعد کون الطاغوت بمعنی الشيطان ـ قوله تعالی: ﴿ولا تتّبعوا خطوات الشيطان إنّه لکم عدو مبين﴾(البقرة(۲) :۱۶۸) وقوله: ﴿إنّ الشيطان لکم عدو فاتخذوه عدوا﴾(فاطر(۳۵): ۶)، فانّ کونه عدواً للانسان جملة ينافی صيرورته ولياً و لو فی بعض الأوقات.

والمراد بالطاغوت هاهنا إمّا الشياطين ـ وهو قول ابن عباس ـ وقيل : رؤساء الضلالة[1] ـ عن مقاتل ـ وقيل : الأصنام . وقيل : المشتهيات النفسانيّة والأعراض الدنياويّة . وقيل : النفس الأمارة بالسوء . ولكلّ وجه بل المرجع فيها واحد هو حبّ الدنيا لنقصان الجوهر وقصور الذات .

المطلع الثانى
[استدلال المعتزلة بهذه الآية على أنّ الكفر ليس بقضاء اللّه و ردّها]

قد استدلّت المعتزلة بهذه الاية على أنّ الكفر ليس بقضاء الله ، لأنّه أضافه الى الطاغوت .

والجواب : أنّ هذه الاضافة مجازية بالاتفاق ، وخصوصاً على قول من يكون المراد به عنده الصنم كقوله تعالى : ﴿ربّ إنّهن أضللن كثيراً من الناس﴾(ابراهيم(١٤) : ٣٦)، فاذا كانت هذه الاضافة بالاتفاق مجازية بين الفرق فقد خرجت عن أن تكون حجة لهم .[2]

المطلع الثالث
[برائة اللّه تعالى عن العباد منوطة بمحبّة العباد الباطل]

كما أنّ ولاء اللّه للعباد منوط بولائهم إيّاه ، فكذلك برائته تعالى عنهم منوطة بمحبّتهم الباطل ، فالمراد هاهنا على حسب الوزان : إنّ الذين كفروا أولياؤهم الطاغوت صاروا مبعدين مطرودين عن اللّه ملعونين مستوجبين للنار خالدين فيها .

ودليل ما ذكرنا قوله تعالى : ﴿ومن الناس من يتخذ من دون اللّه أندادا يحبّونهم كحب الله﴾(البقرة(٢) :١٦٥) ؛ لأنّه لوفسّرنا الطاغوت بالأصنام فانّها عن الولاء و المحبّة ، و إن حملنا على الشيطان أوالنفس فانّهم الأعداء لا الأولياء و إن حملنا على الرؤساء والمتقدمين فانّ لهم فراغة عن ولائهم ومحبّتهم ، و إن كانوا يقطعون الطريق عليهم ويمنعونهم عن الاسلام ويدعونهم الى الكفر ، فهذا من العداوة لامن الولاء ، فثبت أنّهم أولياء الطاغوت لا العكس .

ولهذا الفرق ذكر الأولياء بلفظ الجمع والطاغوت بلفظ المفرد كما مرّ .

و لمّا كان فى حق المؤمنين الولاء والمحبة من اللّه تعالى ابتداءاً ـ لامنهم ـ قال سبحانه :

---

١ . تفسير مجمع البيان ، ج٢ ، ص١٦٥

٢ . تفسير الرازى ، ج٧، ص٢١

﴿اللّه ولی الذین آمنوا﴾ دلیله : ﴿یحبّهم ویحبّونه﴾ (المائدة(۵) : ۴۵) بدأ بمحبّته إیّاهم .

وأمّا قوله : ﴿یخرجهم من النور الی الظلمات﴾ ، فلیس لکلّ طاغوت قدرة بالحقیقة علی اخراج أحد من النور الی الظلمات ، کما ورد عن النبیﷺ : «بعث الشیطان مزیناً ولیس الیه من الضلالة شیء» .[1] و إنّما نفوس الانسان تمیل الی مایلائم هواها وشهوتها ، فتسکن فیها ولاها ومحبّتها ، فیتمنی نیل مرادها وحصول مرامها من شیء أو شخص أو شیطان أو صنم یتشبث بذلک ویتعلّق به ویتولّاه ، ویجعله طاغوتاً یشغلهم عن اللّه تعالی وطلب القرب منه و الارتقاء الی عالم الروحانیین و جنة المقرّبین .

فلهذا ینسب اللّه الاخراج الیهم بقوله : ﴿یخرجونهم﴾ لکونهم منشأ للخروج بوجه مّا ، فیکون نسبة الاخراج الیهم من باب نسبة المعلول الی آلة الفعل ، کقوله تعالی حکایة عن دعاء خلیله علی نبیّنا وعلیه السلام : ﴿واجنبنی وبنّی أن نعبد الأصنام ربّ إنّهنّ أضللن کثیراً من الناس﴾ (ابراهیم(۱۴) : ۳۶) ، فالناس بواسطة محبّتهم وعبادتهم ضلّوا عن سبیل اللّه لا باضلالهن ، وکذلک الکفار بتولیتهم الطاغوت اخرجوا من النور .

المطلع الرابع
فی معنی «النور» هاهنا

اعلم أنّ معنی النور فی هذا الموضع غیر معناه الذی قد مرّ ، فانّ معنی الایة : یخرجونهم من نور الروحانیّة والایمان الفطریّ المشار الیه بقولهﷺ : «کلّ مولود یولد علی الفطرة»[2] أی : فطرة الاسلام ـ الی ظلمات الصفات النفسانیة والبهیمیّة و السبعیّة ، ظلمات بعضها فوق بعض و درکات بعضها تحت بعض ، الی أن تکدرت الأرواح وأظلمت بهذه الصفات وتخلقت النفوس الأرضیة واتّصفت بصفاتها .

فکما أنّ النفوس إذا تنوّرت بنور الایمان و المعارف و الأخلاق الروحانیة ، وعلت الی عالم الأرواح و أعلی علیّین القرب مع کونها سفلیّة فباکسیر طاعة الشرع والمجاهدات الدینیة تصیر بصفة الهلویات وتطیر بأجنحة الروحانیین ، وتدعی بنداء ﴿یا أیّتها النفس المطمئنّة ارجعی الی ربّک راضیة مرضیة﴾ ، فکذلک الأرواح العلویة لمّا اتصفت بصفات

۱ . الجامع الصغیر ، ج۱ ، ص۴۸۷ ؛ تفسیر السمعانی ، ج۱ ، ص۴۸۰
۲ . الکافی ، ج۲ ، ص۱۳ ، ح۳

النفس الأمارة وانقلبت جوهرها النورانيّة باكسير الطبع الحيوانى ظلمانية، أمرت بالهبوط الى أسفل سافلين البعد والطرد، دليله قوله تعالى: ﴿لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم﴾ بحسب روحه الذى هو من عالم النّور، ﴿ثمّ رددناه أسفل سافلين﴾، بافساد الاستعداد الروحانى بالكفر ومتابعة الهوى والطاغوت﴿إلّا الذين آمنوا﴾(التين(٩٥): ٦-٤)

شكّ و تحقيق
[فى بيان عالمى الأمر و الخلق]

ولک أن تقول: إنّ الانسان بحسب أصل فطرته و أوّل خلقته لايخلوا إمّا أن يكون نورانياً أو ظلمانياً، فان كان الأوّل فما معنى قوله تعالى: ﴿يخرجهم من الظلمات الى النور﴾ حيث لم يكن فى ظلمة أصلاـ لابحسب الواقع ولابحسب الفطرة الأصلية كالمؤمنين الذين ما كانوا كفاراً قط؟ و إن كان الثانى فما معنى قوله تعالى: ﴿يخرجونهم من النور الى الظلمات﴾

فنقول: اعلم أنّ الانسان لكونه مركباً من عالمى الأمر والخلق، فله فطرتان: إحداهما: روحانىّ نورانى علوى من عالم الأمر وهو الملكوت الأعلى، وثانيتهما: نفس ظلمانية سفلية من عالم الخلق، ولكلّ منهما نزاع وشوق الى عالمه. فقصد الروح وميله ورغبته وشوقه أبداً الى عالمه وهو جوار ربّ العالمين ومصاحبة المقدّسين، وميل النفس وقصدها الى عالمها وهو أسفل السافلين وغاية البعد عن الحق.

وبين النفس والروح تجاذب وتنازع وتقالب وتقاوم، كلّ منهما يريد أن يسخر صاحبه ويستخدمه ويستعبده فى تحصيل مآربه ومطالبه.

ولكلّ منهما أولياء وجنود: فولىّ الروح هو الله، وجنوده أحزاب الملائكةـ وهى المعارف والأخلاق الحسنة و القوى الروحانيّةـ و ولىّ النفس الطاغوت، و جنوده الجهالات و الصفات الذميمة والقوى النفسانيّة، والمحاربة والمطاردة قائمة بينهما فى معركة القلب الانسانى الى أن ينفتح القلب لأحدهما فيكون له الحكم والغلبة فى الانسان، فيتمكّن ويستوطن فى قلبه ويجعله عشّالة.

فان كانت الغلبة لحزب اللّه بعلامات يعرفها أرباب القلوب فى أنّه خلق للجنّة لسابق التقدير وسابق القضاء، فيكون اللّه متولّى أمره ومخرجه من الظلمات ـ التى هى الدواعى النفسانية بحسب فطرة النفس ـ الى نور العرفان بتوفيق الطاعات وفعل الخيرات.

وإن كانت الغلبة لحزب الشيطان لكونه خلق للنار فيسّر له أسباب المعصية لحكمة الهيّة ومصلحة قدريّة يعرفها أهل الله، فيكون الشيطان وجنوده أوليائه وأحبائه ومتولّى أمره ومخرجيه من النور الذى كان له بحسب فطرة الروح، المشار اليه بقوله ﷺ: «كلّ مولود يولد على الفطرة» الى الظلمات الدنياوية من الشهوات واللذّات ولا يرغبهم الطاغوت فيها، لقوله تعالى: ﴿يعدهم ويمنّيهم ومايعدهم الشيطان إلّا غروراً﴾(النساء(۴): ۱۲۰)يعدهم بالتوبة ويمنّيهم بالمعرفة الى أن يهلكهم بهذه الحيل ومايجرى مجراها.

كلّ ذلک غير خارجة عن قضاء اللّه وقدره، كما قال: ﴿فمن يرد اللّه أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنّما يصّعد فى السماء﴾ (الأنعام (۶): ۱۲۵)، وقوله: ﴿إن ينصركم اللّه فلاغالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده﴾ (آل عمران(۳): ۱۶۰).

فهو الهادى والمضل، يفعل مايشاء ويحكم مايريد، خلق الجنة وخلق لها أهلها، وعرف الخلق- وخصوصاً أوليائه- علامة أهل النار وأهل الجنة، فقال: ﴿إنّ الأبرار لفى نعيم و إنّ الفجار لفى جحيم﴾(الانفطار(۸۲): ۱۴).

ولمّا كان الغالب على أكثر الخلق جانب النفس والميل الى الظلمات بعث برحمته الأنبياء صلوات اللّه عليهم لتزكية النفوس عن ظلمة أوصافها وسوء أخلاقها، وتحلّيها بحلية أنوار الأرواح ليستحق بها جوار الحق وقربه فى زمرة الأرواح المقدّسة، فتزكيتها فى اخفاء ظلمة أوصافها بابداء أنوارأخلاق الروح عليها فى تحليتها بها، و هذا مقام الأولياء مع اللّه يخرجهم من الظلمات الى النور.

و بعث الشيطان الى أوليائه ـ و هم أعداء اللّه ـ ليخرج أرواحهم من الروح الروحانى الى الظلمات النفسانيّة، باخفاء أنوار أخلاقها فى البداء ظلمات أخلاق النفس عليها ليستحّق بها دركة أسفل السافلين وغاية البعد عن الحق، فيغفر لمن يشاء و يعذّب من يشاء، يغفر المطيع بتنوير نفسه بأنوار الروح، و تنوير روحه بأنوار الحق ويعذّب العاصى بعقوبة نفسه بنار دركات السعير، وروحه بنار الفرقة والبعد﴿ واللّه على كلّ شىء قدير﴾ من اظهار اللطف و القهر على تركيب عالمى الخلق والأمر.

المطلع الخامس
فی تحقیق العلاقة العقلیّة والملازمة الذاتیة بین الکفر وطاعة الشیطان کما یستفاد من هذه الآیة

اعلم أنّ الشیطان ـ کما حقّقناه فی کتاب المبدأ والمعاد[1] ـ جوهر مجرّد الذات جسمانی خلقت ذاته من اللّه تعالی بتوسّط العقول الفعّالة لأجل جهة امکانیّة ظلمانیة، وذاته و إن کانت شراً محضاً، إلّا أنّها وجدت بتقدیر اللّه لحکمة قضائیّة ومصلحة قدریّة، فهو و إن کان من شأنه الغلط والتغلیط، والضلال والاضلال، إلّا أنّ نسبته الی الملائکة المقرّبین نسبة الوهم الی القوة العاقلة.

وکما أنّ وجود الوهم فی العالم الصغیر الانسانی منشأ الغلط والکفر والتغلیط ـ إلّا أنّه ضروری الوجود فی ادراک الجزئیات، ویدفع ضرّه و شرّه بالحکمة والبرهان النیّر، فکذلک وجود الشیطان فی العالم الدنیاوی ضروری یوجب تعمیر هذه النشأة الدنیویّة، ویدفع شرّه وضرّه بنور الاسلام وطاعة الشریعة الالهیّة.

ومن هاهنا ینکشف لدی العاقل البصیر أنّ منشأ الکفر لیس إلّا محبّة الباطل، ومنشأها لیس إلّا ترویج الباطل فی صورة الحق، ولو نظر أحد بعین التحقیق الی حال الانسان عند محبة کلّ ما یستلذه أو یعتقده أو یطلبه من الأمور الباطلة الزائلة، کالزنا وأکل مال الیتیم وقتل النفس المحرمة، وعداوة أولیاء اللّه، ومحبّة أعداء اللّه، فلیس یجده فی تلک الحال إلّا زاعماً ـ لغایة غروره ـ أنّ فی ذلک کمالا وحقیقة، ووجوداً ودواماً، فمالم یعم ولم یصم عن مشاهدة بطلان المحبوبات الباطلة ودثور المرغوبات الزائلة لم یقدم علی محبتها وطلبها ومباشرتها.

فمبدأ جمیع القبائح یرجع الی ترویج الباطل فی صورة الحق، فالانسان فی هذا الترویج یتبع الشیطان وصار عقله مقهوراً لوهمه عند ادعائه له فی هذا الترویج والتدلیس، وکلّ من کفر باللّه وآیاته فصار من أتباع الشیطان، ومحبیه فی هذا التغلیط من الوهم للقوة العاقلة لصیرورة عقله مذعناً لوهمه.

و الوهم من جنود الشیطان؛ لأنّ فعله الاغواء وتزیین الباطل وترویجه فی صورة الحق، وتابع التابع للشیء تابع لذلک الشیء. والتابع للشیء محبّ له، فثبت ما ادعیناه

۱. المبدأ و المعاد، ص۱۹۶

من أنّ الكفر منشائه ولاء الشيطان، باضافة المصدر الى المفعول ـ كما حقّقناه.

ومن هاهنا يعلم أنّ ابليس وإن كان أصله من الملک إلّا أنّه لم يكن إلّا منافقاً مغالطاً جاهلا كافراً، وما زعمه بعض الجماهير أنّ الشيطان كان من أعلم العلماء، فكلامه مزيف سخيف، وكأنّهم لم يفرقوا بين العلم و المغلطة، ولا بين الحكمة والسفسطة، وخصوصاً على مذهب من يمنع الاحباط كما ذهب اليه أصحابنا الامامية ـ رضوان اللّه عليهم ـ.

ومن الدلائل على سبق كفره قوله تعالى: ﴿كان من الكافرين﴾(البقرة(٢): ٣٤)، وممّا يؤيّد ماذكرناه من أنّ ابليس كان كافراً فى أوّل الأمر ماحكاه محمد بن عبدالكريم الشهرستانى فى أوّل الملل والنحل[1] عن شارح الأناجيل الأربعة شبه مناظرة بين ابليس والملائكة بعد الأمر بالسجود:

قال ابليس ـ لعنه اللـه ـ: إنّى سلمت أن البارى تعالى الهى و اله الخلق، عالم، قادر، حكيم، إلّا أنّ لى على مساق حكمته أسئلة:

الأوّل: أنّه قد علم قبل خلقى أىّ شىء يصدر عنّى، فلم خلقتنى؟ وما الحكمة فى خلقه إيّاى.

الثانى: إذ خلقنى على مقتض ارادته و مشيته فلم كلّفنى بمعرفته و طاعته؟ و ما الحكمة فى التكليف بعد أن لا ينتفع بطاعة و لا يتضرر بمعصية و كلّ ما يعود الى المكّفين فهو قادر على تحصيله لهم من غير واسطة التكليف.

الثالث: إذ خلقنى كلّفنى فالتزمت تكليفه بالمعرفة والطاعة، فأطعت وعرفت فلم كلّفنى بطاعة آدم والسجود له؟ و ما الحكمة فى هذا التكليف على الخصوص؟ فاذ لم أسجد فلم لعننى وأخرجنى من الجنة وأوجب عقابى مع أنّه لافائدة له فى ذلک، و لى فيه أعظم الضرر؟

الرّابع: ثمّ فعل ذلک فلم مكّننى من الدخول فى الجنة ومن وسوسة آدم بعد أن لو منعنى من دخول الجنة استراح منّى آدم وبقى خالداً فى الجنة.

الخامس: إذ خلقنى وكلّفنى عموماً وخصوصاً و لعننى ثمّ طرقنى الى الجنة وكانت الخصومة بينى و بين آدم، فلم سلّطنى على أولاده حتى أراهم من حيث لايرونني، وتؤثر فيهم وسوستى ولايؤثّر فى حولهم و قوتهم، وما الحكمة فى ذلک بعد أن لو خلقهم على الفطرة دون من يحتالهم عنها، فيعيشوا طاهرين سامعين طائعين مطيعين كان أحرى بالحكمة.

---

١. الملل و النحل، ج١، ص١٧.

والسادس : سلمت هذا كلّه ، فلم إذا استمهلته أمهلنى؟ وما الحكمة فى ذلک بعد أن لو أهلكنى فى الحال استارح الخلق منّى وما بقى فى العالم شرّ؟ أليس بقاء العالم على نظام الخير خيراً من امتزاجه بالشرّ؟

فقال شارح الأناجيل : فأوحى اللّه الى الملائكة قولوا له : «أمّا تسليمک الأوّل ـ إنّى الهک واله الخلق ـ فغير صادق ولامخلص ، إذ لو صدقت إنّى اله العالمين ، ما احتكمت على بـ «لم» ، فأنا اللّه الذى لا إله إلّا أنا ، لا أسئل عمّا أفعل والخلق مسئولون ، هذا مذكور فى التوراة ومسطور فى الانجيل .

وهذه الشبهات بالنسبة الى أنواع الضلالات كالبذور ، وليست تعدوها عقائد فرق الزيغ والكفر ، وإن اختلفت العبارات وتباينت الطرق ، ويرجع جملتها الى انكار الأمر بعد الاعتراف بالحق والى الجنوح الى الهوى فى مقابلة النص ، ولاجواب عليها بالتحقيق إلّا الذى ذكره اللّه تعالى .

فاللعين لمّا عقله الوهمانى على من لايتحكّم عليه العقل ، لزمه أن يجرى حكم الخالق فى الخلق ، أو حكم الخلق فى الخالق ، فالأوّل غلو كالحيلولية وكالغلاة ، والثانى تقصير كالمشبّهة ـ وصفوا الخالق بصفات الأجسام ـ وكالخوارج ، نفوا تحكيم الرجال وقالوا : لاحاكم إلّا الله ، كقوله : ﴿ءأسجد لبشر خلقته من صلصال﴾ لاأسجد إلّا لک

فالشبهات كلّها ناشية من اللعين ، وتلک فى الأوّل مصدرها ، وهذه فى الأخيرة مظهرها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ولاتتّبعوا خطوات الشيطان إنّه لكم عدوّ مبين﴾(البقرة(٢) : ١٦٨) وشبّه النبىﷺ كلّ فرقة ضالة من هذه الأمة بأمة ضالة من الأمم السافلة ، فقال« : القدرية مجوس هذه الامة»[١] و «المشبهة يهود هذه الأمة»[٢] و« الغلاة نصاراها»وقالﷺجملة : «لتسلكن سبيل الأمم قبلكم حذو القذة بالقذة بالقذة[٣] والنعل بالنعل ، حتى لو دخلوا جحرضب لدخلتموه» .[٤]

---

١ . التوحيد للصدوق ، ص٣٨٢ ، ح٢٩ ؛ مستدرک الوسائل ، ج١٢ ، ص٣١٧

٢ . الملل و النحل ، ج١ ، ص٢٠

٣ . قوله : «القذة بالقذة» ، القذذ بضم القاف وفتح الذال ريش الهم واحدتها قذة بضم القاف ، يقال : حذو القذة بالقذة إذا تساويا فى المقدار حيث يقدر واحدة كلّ منهما على قدر صاحبتها و تقطع ثمّ يضرب به مثلاً لشيئين يستويان و لا يتفاوتان أصلاً . شرح أصول الكافى ، ج٦ ، ص٢٠٥

٤ . نفس المصدر

وأمّا الزاعمون بأنّ أبليس كان مؤمناً ثمّ كفر بعد ذلک، فقد اختلفوا فی توجیه ماذکرناه من قوله تعالی: ﴿کان من الکافرین﴾(البقرة(۲): ۳۴)، فمن قائل معناه: کان من الکافرین فی علم الله ـ أی کان عالماً فی الأزل بأنّه سیکفرـ فصیغة کان متعلّق بالعلم لابالمعلوم.

ومن قائل: إنّ«کان» بمعنی«صار».

وقیل: لمّا کفر فی وقت معین بعد أن کان مؤمناً، فبعد لحظة یصدق علیه أنّه کان من الکافرین، وإنّما حکم بکفره علی هذا القول الثانی لاستکباره واعتقاده کونه محقاً فی ذلک التمرد بدلیل قوله: ﴿أنا خیر منه﴾(الأعراف(۷): ۱۲) و إلّا فمجرد المعصیة لایوجب الکفر عندنا و إن کانت کبیرة، وکذا عند المعتزلة و إن خرج الایمان لم یدخل فی الکفر. نعم، عند الخوارج الکبیرة موجبة الکفر علی الاطلاق.

المطلع السادس
فی توضیح الفرق بین محبة اللّه و محبة الشیطان

اعلم أنّ المحبّة نوعان بحسب المحب والمحبوب: محبّة هی من صفات الانسان بحسب طبیعته البشریة ـ وهی من هوی النفس الأمارة بالسوء، ومحبّة هی من صفات الحق، وهی من آثار الارادة القدیمة الالهیّة التی اقتضت خلق العالم بما فیه، کما قال تعالی: «کنت کنزاً مخفیاً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف».[1]

وقال بعض الحکماء: «لولا عشق العالی لانطمس السافل»[2]، فمن وکل الی محبة النفسانیّة تعلّقت بما یلائم هوی النفس من أصناف الأصنام التی ینحتها الشیطان، لیسخر بها النفوس ویجعلها من جنوده المعادیة المنازعةلجنود الرحمن، وجنوده أهل الدنیا المحبین لشهواتها وزهراتها سواء کانوا متسمین بالاسلام أو بالکفر، إذ لافرق عند أرباب الحقیقة بین عبدة الأصنام وعبدة الدنیا.

فکما أنّ الکفار بعضهم یحبّون اللات ویعبدونها، وبعضهم یحبون العزی ویعبدونها، کذلک أهل الدنیا بعضهم یحبّون الأموال ویعبدونها، وبعضهم الأولاد و یعبدونها، و بعضهم یحب غیر ذلک، کما قال سبحانه: ﴿ومن الناس من یتخذ من دون اللّه أنداداً یحبّونهم کحبّ اللّه﴾(البقرة(۲): ۱۲۶).

۱. مستدرک سفینة البحار، ج۹، ص۱۹۳؛ کشف الخفاء، ج۲، ص۱۳۲، ح۲۰۱۶
۲. المبدأ و المعاد، ص۲۲۷

ولهذا أعلم اللّه عباده عن فتنة هذه الأشياء وحذرهم عنها بقوله : ﴿إنّما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ (التغابن، ۶۴) : ۱۵) وبقوله : ﴿إنّ من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم﴾ (التغابن (۶۴) : ۱۴) يعنى : فاحذروهم عن محبّتهم، لأنّ محبتهم يمنعكم عن محبّة الله، وهو الحبيب وإنّهم العدو، لأنّهم من توابع ما هو عدو بالاصالة ـ وهو الهوى والطاغوت ـ.

وقال تعالى فى موضع آخر فى حق الذين ستروا أنوار روحانيّتهم ومحبّة اللّه بظلمات صفات نفسانيّتهم من هوى النفس وجحود الحق وانكاره وحب الشهوات : ﴿زيّن للناس حبّ الشهوات من النساء والبنين﴾ ـ الى قوله ـ ﴿ذلک متاع الحياة الدنيا واللّه عنده حسن المآب﴾ (آل عمران(۳) : ۱۴)

يعنى : ذلک متمتّعات أهل الدنيا، والذين يأكلون ويتمتّعون بها كما تأكل الأنعام ويتمتّع بها فالنار مثوى لهم، ولخواص اللّه المقبولين عنده بقبول العناية، المجذوبين لديه عن شهوات نفوسهم والطبايع الحيوانية بجذبات الهداية الربانّية عنده حسن المآب، لدوام ابتهاجهم بنور الحق ومشاهدة صفات جماله و جلاله، ومن وكل الى محبّة اللّه وكان فى الأزل أهلا لها فما وكل الى محبّة النفس وهواها، بل جذبته العناية الأزليّة ونظمته فى سلک الكناية المذكورة فى بشارة «يحبّهم ويحبّونه»، فانّها لايتعلّق بغير الله، لأنّها من عالم الوحدة فلايقبل الشركة، كما قال اللّه تعالى : ﴿والذين آمنوا أشدّ حبّا لله﴾ (البقرة(۲) : ۱۶۵).

وممّا وقع فى الفرس تفطّناً لهذا المعنى حيث قيل :

بلى سلطان معشوقان غيور است — ز شركت ملک معشوقيش دور است
نمى‌خواهد ز انجام و ز آغاز — در اين منصب كسى را با خود انباز

و ذلک لأنّ أولياء الشيطان أحبّوا الأنداد بمحبّة فانية نفسانية وأحبّاء اللّه أحبّوه بمحبّة باقية ربانيّة، كما قيل شعراً :

قد طال الى لقائكم أشواقى — و الهجر و ما أراق من آماقى
لو قطّعنى الفراق ارباً اربا — فى المهجة حبّكم كما هو باق

بل أحبّوه بجميع أجزائهم الفانية والباقية كما قيل :

الشوق أكثر أن يختص جارحة كلى اليک على الحالات مشتاق

ولهذا احترزوا عن محبّة غير الله، إذ لم يبق فيهم موضع محبّة الغير، كيف و محبّتهم تمنع عن محبّة الله، وهو الحبيب الأولّ، و إنّهم العدوّ، فمن أحبّ اللّه يرى ماسواه بنظر

العداوة، كما كان حال الخليل عليه السلام فقال: ﴿فانّهم عدوّ لى إلّا ربّ العالمين﴾(الشعراء(٢٦): ٧٧).

فكما أنّ لأرباب النفوس بغلبات الشهوات النفسانيّة حظوظ منبعثة من دركات الجحيم ـ من النساء والبنين والذهب والفضّة والخيل والأنعام والحرث ـ على عدد أبوابها السبعة ودركاتها التى كلّها محفوفة بالشهوات كما قال صلى الله عليه وآله: «حفّت النار بالشهوات» لكلّ دركة شهوة لها سبعة أبواب[1] لكلّ باب جزء مقسوم، منهم يتلذذون بها عاجلا ويصلونها يوم الدين آجلا، كما قال: ﴿إنّ الفجّار لفى جحيم﴾ـ يعنى الآن عاجلا ـ ﴿يصلونها يوم الدين﴾ـ يعنى غداً آجلا ـ ﴿وما هم عنها بغائبين﴾(الانفطار(٨٢): ١٤-١٦) فكذلك لأرباب القلوب بغلبات أوصافها الروحانيّة وجذبات عناياتها الربانيّة حظوظ من درجات الجنان ونعيمها عاجلا ثمّ يدخلونها آجلا، كما قال سبحانه و تعالى: ﴿إنّ الأبرار لفى نعيم﴾(الانفطار (٨٢):١٣) نعيم الآثار و الأفعال، وأمّا نعيم الذات والصفات فأشار اليه بقوله: ﴿واللّه عنده حسن المآب﴾(آل عمران (٣): ١٤) وبقوله تعالى: ﴿اللّه يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب﴾(الشورى(٤٢): ١٣).

المقالة التاسعة عشرة
فى قوله سبحانه: ﴿أولئک أصحاب النار﴾

وفيه البصائر:

البصيرة الأولى
فى اللفظ

اسم الاشارة فيه يحتمل أن يرجع الى الكفار والطواغيت جميعاً، فيكون زجرا للكلّ ووعيداً، لأنّ لفظ «أولئک» إذا كان جمعاً وصحّ رجوعه الى كلا المذكورين وجب رجوعه اليهما معاً، لكن إلّا رجح عندى أن يكون راجعاً الى الكفار خاصة، ويكون المراد من أصحاب النار أصحابها أصالة وجبلّة ـ وهم النفس والشيطان والطاغوت ـ، فيكون معنى الاية: أرواح الكفّار مع أصحاب النار؛ بتقدير المضاف هم فيها خالدون. أى: معهم فيها خالدون.

١. صحيح ابن حبان، ج٢، ص٤٩٤؛ تفسير كنز الدقائق، ج١، ص٥١٥